

## ثمرات التوبة

- كسب المغفرة والجنة .
- تجديد الإيمان .
- تبديل السيئات حسنات .
- الانتصار على العدو الدائم .
- الانتصار على النفس الأمارة بالسوء .
- انكسار القلب لله .
- محبة الله تعالى .
- فرح الله بالتائب .

obeikandi.com

## ثمرات التوبة

وللتوبة النصوح إذا تحققت أركانها، واستوفت شروطها: ثمار دانية القطوف ، يجدها كل تائب في نفسه وفي حياته الدنيا ، وجزاء الآخرة خير وأبقى ، وهى ثمرات أخروية ودنيوية ، روحية ومادية ، أخلاقية وعملية ، فردية واجتماعية .

### ١ - تكفير السيئات ودخول الجنات :

وأولى هذه الثمرات : كسب المغفرة ودخول الجنة ، التى أعد الله فيها لعباده الصالحين : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

لقد أمرنا الله تعالى فى كتابه بالمسارعة إلى مغفرة من ربنا ، وإلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، ولكنه بين لنا فى جلاء : إن المتقين ليسوا ملائكة أطهارا ، ولا أنبياء معصومين ، ولكنهم بشر من خلق الله ، يصيئون ويخطئون ، يطيعون ويعصون ، ويستقيمون وقد ينحرفون ، بيد أن مزيتهم على غيرهم أنهم لا يتمادون فى الخطايا ، ولا يذهبون فى المعاصى حيث لا يعودون ، بل سرعان ما يعودون إلى باب ربهم ، واقفين على عتباته ، مبتغين لمرضاته ، طالين لعفوه ، سائلين لمغفرته ، راجين لرحمته ، يقول تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ \* الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ \* وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

(١) السجدة : ١٧ . (٢) آل عمران : ١٣٣ - ١٣٥ .

فوصفهم الله تعالى ببذل الندى ، واحتمال الأذى ، حين وصفهم بالإنفاق فى حالتى اليسر والعسر ، وكف النفس عن الغضب ، بل يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ، ثم بين سبحانه أنهم إذا ضعفوا يوماً فوقعوا فى كبيرة مثل فعل الفاحشة ، أو فى صغيرة ، وهو ما عبرت عنه الآية بظلم النفس ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

رتبت الآية الكريمة على التوبة النصوح أمرين : تكفير السيئات ، ودخول الجنات .

وقد بين الغزالي رحمه الله :

أن للتوبة ثمرتين :

إحداهما : تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له .

الثانية : نيل الدرجات حتى يصير حبيباً لله .

وللتكفير أيضاً درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف

له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب ، والتدارك بالحسنات -

وإن خلا عن حل عقدة الإصرار - من أوائل الدرجات ، فليس يخلو عن الفائدة

أصلاً ، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها ، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب

القلوب معرفة لا ريب فيها : أن قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

يَرَهُ ﴾ (٢) صدق ، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح

(٢) الزلزلة : ٧ .

(١) التحريم : ٨ .

فى الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات ، وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل ، فترفع كفة السيئات ، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تتقيها ، كالمرأة الخرقاء التى تدع الغزل اتكالا بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد ، وتقول : أى غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أفطاره اجتمعت ذرة ذرة ، فإذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضع عند الله أصلا ، بل أقول : الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب (١) .

## ٢ - تجديد الإيمان :

ومن الثمار اليانعة للتوبة : أنها تعمل على تجديد إيمان التائب وترميمه بعد ما نالت منه الخطايا ما نالت ، فإن الذنوب والمعاصى التى تقع من المسلم تخدش الإيمان وتجرحه جرحا يصغر أو يكبر ، بقدر حجمها من الصغر والكبر ، ويقدر كمها من القلة والكثرة ، ويقدر كيفها من التأثير فى النفس ، فالمعصية التى يفرح بها صاحبها ، ويستعيد ذكرها بتلذذ ، غير التى يحزن لوقوعها ، ويشعر بالأسى كلما تذكرها ، والمعصية التى يجاهر بها مرتكبها ويتبجح ، غير التى يستخفى بها ، ويخجل منها ، ويسأل الله أن يسترها عليه ولا يفضحه فى الدنيا ولا الآخرة .

والمعصية التى تقع فلتة من صاحبها كأنها بيضة الديك كما يقال ، غير التى تتكرر منه ، ويصر عليها مواظبا فيعلق القلب بها .

---

(١) انظر : الإحياء : ٤ / ٤٨ .

وعلى كل حال ، يظل هناك للمعصية تأثير سلبي على إيمان المكلف ، قد ينتهى به إلى الكفر والعياذ بالله .

وفى الحديث الصحيح : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان على رأسه كالظلة ، فإذا أقلع ، رجع إليه » (٢) .

ويقول : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! من لا يأمن جاره بوائقه » (٣) .

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٤) .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلل خيرا أو ليصمت » (٥) . . . ومفهومه أن من لم يفعل هذه الخصال قد انتفى عنه الإيمان .

ما المراد بنفى الإيمان فى هذه الأحاديث ؟ لا نريد أن ندخل فى خلاف الفرق حول هذه النصوص وما شابهها .

ولكن المتفق عليه : أنها تنفى الإيمان الصادق والكامل ، وتغشى نوره بظلامها ، وصفاءه بسوادها ، فلا يصبح الإيمان بعد المعصية بقوة ونقاؤه وكماله وتأثيره كما كان قبل المعصية .

- 
- (١) متفق عليه عن أبى هريرة ، صحيح الجامع الصغير ( ٧٧٠٧ ) .
  - (٢) رواه أبو داود والحاكم عن أبى هريرة ، المصدر السابق ( ٥٨٦ ) .
  - (٣) رواه أحمد والبخارى عن أبى شريح ، المصدر السابق ( ٧١٠٢ ) .
  - (٤) متفق عليه عن أنس ، نفسه ( ٧٥٨٣ ) .
  - (٥) متفق عليه عن أبى شريح وأبى هريرة ، صحيح الجامع ( ٦٥٠١ ) .

ولهذا كانت التوبة الصادقة النصوح تجديدًا للإيمان : تقويه بعد ضعف ،  
وتوقظه بعد رقود ، وثبته بعد زعزعة ، بما تضيف إليه من أشواق وبواعث ومشاعر  
حية وجديدة ، تحفز إلى الخير ، وتزجر عن الشر .

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يعطف الإيمان على التوبة ، ويقرنه بها ، لأنه  
مكمل لها ، بل مصحح لوجودها ، كما فى قوله تعالى فى وصف عباد الرحمن :  
﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا  
بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا \* إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ  
يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . . ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٢) .  
ولتجديد الإيمان بالله فى نفس التائب دلائل وآيات يعرفها صاحبها ويعيشها .

منها : أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال  
رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه ، وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه  
« البرُّ » وهذا البر من سيده كان مع كمال غناه عنه ، وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل  
بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن كل ما سوى  
الله ، ولا يشتغل إلا بذكره وشكره وحسن عبادته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما  
سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسمى .

ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راکب الخطيئة ، ولو شاء  
لعاجله بالعقوبة ، ولكنه الحليم الذى لا يعجل ، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه  
باسمه « الحليم » ومشاهدة صفة « الحلم » والتعبد بهذا الاسم .

ومنها : معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بضغفه

(٢) طه : ٨٢ .

(١) الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

وعجزه ، وغلبة هواه ، وشيطانه عليه ، ونحو ذلك ، فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغاله بذكره وشكره ، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجزاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهد بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله في مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلاً محموداً ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحاً وابتهاجاً به ، ومعرفة له باسمه « الغفار » ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبداً بمقتضاها ، وذلك أكمل في العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن تكتمل للتائب مراتب الذل والخضوع لربه جل شأنه ، والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه . فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ، ولو قَدَرْتُ لقلت كقول فرعون ، ولكنه قدر فأظهر ، وَغَيْرُهُ عجز فأضمر ، وإنما يُخَلِّصُهَا من هذه المضاهاة ذل العبودية ، وهو أربع مراتب :

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق ، وهي ذل الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه ، فقراء إليه ، وهو وحده الغنى عنهم ، وكل أهل السموات والأرض يسألونه ، وهو لا يسأل أحداً .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة ، والعبودية ، وهو ذل الاختيار ، وهذا خاص بأهل طاعته ، وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة ، فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل :

اخضعْ وَذَلِّ لِمَنْ تَحِبُّ ، فليس في حُكْمِ الهوى أنْفُ يُشَالُ ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهل الحب ، حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر (١)

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية •

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع : كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ، إذ يذل له خوفاً وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقراً وفاقة (٢) .

\* \* \*

### ٣ - تبديل السيئات حسنات :

ومن ثمار التوبة : ما ذكره الله تعالى في كتابه من تبديل سيئات التائبين حسنات .

وهو قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٣) ، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح ، وهو حقيقة التوبة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت ، وفرحه بنزول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ \* لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (٤) .  
واختلفوا في صفة هذا التبديل ، وهل هو في الدنيا ، أو في الآخرة ؟ علي قولين :

---

(١) في هامش الأصل من ( المدارج ) :

أذل لمن أهوى لأكسب عزة      وكم عزة قيد نالها المرء بالذل  
إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن      ذليلاً له ، فاقتر السلام على الوصل

(٢) انظر : مدارج السالكين : ١ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) الفرقان : ٧٠ .      (٤) الفتح : ١ ، ٢ .

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها ، فبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنى عفة وإحصائاً ، وبالكذب صدقاً ، وبالحيانة أمانة .

فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ، بدلوا عوضها صفات جميلة ، وأعمالاً صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهـم مكان كل سيئة حسنة .

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى فى جامعه : عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار : يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، ويخبأ عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، وهو مقر لا ينكر ، وهو مشفق من كبارها ، فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة ، فيقول : إن لى ذنباً ما أراها ههنا ! قال أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » .

قال ابن القيم : فهذا حديث صحيح ، ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر ، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار ، ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطى مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه ، وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات ، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب ، والكلام إنما هو فى تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، فزادت حسناته ، فأين فى هذا الحديث ما يدل على ذلك ؟ .

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به فى تفسير هذه الآية على هذا القول ، وقد علمت ما فيه ، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين .

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته ، وهى أن الذنب لا بد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة ، وبالحسنات الماحية

تارة ، وبالمصائب المكفرة تارة ، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة ، وكذلك إذا اشتد أثره ، ولم تقو تلك الأمور على محوه ، فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث ، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه ، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كَبِيرَ الامتحان ، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه ، فيصلح حينئذ لدار الملك .

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح ، وهى أقوى الأسباب ، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار ، فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطى مكان كل سيئة حسنة ، فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة ، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلى الله ، وإزالة النار بدل منها ، وهى الأصل ، فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول .

يوضحه : أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة ، إذ هو توبة تلك السيئة ، والندم توبة ، والتوبة من كل ذنب حسنة ، فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التى حلت محله وهى حسنة ، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار ، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه .

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة ، وقد تكون دونها ، وقد تكون فوقها ، وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق التائب فيها ، وما يقترب بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة ، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها .

يوضحه : أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعاً ، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب : من ذل وانكسار وخشية ، وإنابة وندم ، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه ، حتى يقول الشيطان : ياليتنى لم أوقعه فيما أوقعته فيه ، ويندم الشيطان على إيقاعه فى

الذنب ، كندامة فاعله على ارتكابه ، لكن شتان ما بين الندمين ، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه ، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة ، فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك ، وحصول محبوب الله من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا ، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات .

وتأمل قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ولم يقل مكان كل واحدة واحدة ، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل .

وأما في الحديث : فإن الذي عذب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات ، من التوبة النصوح وتوابعها ، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات ، فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة . وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه ، ولما انتهى إليها ضحك . ولم يبين ما يفعل الله بها ، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة ، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين : أحدهما : قوله « اخبثوا عنه كبارها » فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها ، وطمع في تبديلها ، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده من تبديل الصغائر ، وهو به أشد فرحاً واعتباطاً .

والثاني : ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك ، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان ، وما يُقرُّ به على نفسه من الذنوب ، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها ، وإنما عرضت عليه الصغائر .

فتبارك الله رب العالمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، البر اللطيف ، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

#### ٤ - الانتصار على العدو الدائم :

ومن ثمار التوبة : الانتصار على العدو الدائم للإنسان ، وهو الشيطان ، الذى أقسم أمام الله تعالى : ليضلن بنى آدم ، وليغوينهم أجمعين ، وأكد ذلك القرآن فى عدة سور بأساليب شتى ، كلها تدل على إصرار هذا اللعين على إهلاك الإنسان كما هلك هو باستكباره وتمرده على ربه .

فبعد أن طرده الله من السماء ، وأخرجه مذؤوما مدحورا ، وكتب عليه اللعنة إلى يوم الدين : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ \* ثُمَّ لَأَنبِيَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

ولقد نفذ اللعين وعده ، وبر فى قسمه وهو كذوب ، ولم يتوان ساعة فى تزيين البشر ، وتحسين الباطل ، وإضلال الناس فى الاعتقاد والفكر ، وإغوائهم فى العمل والسلوك ، حتى سئل الحسن البصرى رضي الله عنه : هل ينام الشيطان ؟ قال : لو نام لاسترحنا منه بعض الوقت ! ولكنه لا ينام ولا يأخذ إجازة ، ومن هنا وجب التيقظ لعداوته ، والتنبه لمكايدته ، والتفطن لكل المداخل التى يدخل منها ، والثغرات التى يستغل غفلة حراسها ، ليتسلل إليها ، ويقفز منها إلى داخل حصوننا ليهدمها من داخلها .

لهذا جذرنا الله تعالى منه أشد التحذير ، وبصرنا بأبلغ التبصير ، فقال تعالى :

(٢) الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

(١) الحجر : ٣٩ .

(٣) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

هذا العدو عدو دائم ، لا يقبل صلحا ولا هدنة ، ولا يرضيه إلا هلاك بنى آدم ، الذى كان سبب عداوته لهم الحسد ، وقد قال الشاعر :

كل العداوات قد ترجى إزالتها      إلا عداوة من عاداك من حسد !

وقال معاوية : أستطيع أن أرضى كل الأعداء ، إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتى !

وكلما أوقع الشيطان اللعين ، بنى الإنسان فى برائن الذنوب ، قرت عينه ، وغمرته الفرحة ، بما أصاب من عدوه ، وكلما استنارت بصائرهم ، واستيقظت ضمائرهم ، بعد المعصية ، فتابوا إلى الله واستغفروه ، أدركته الحسرة ، وركبه الغم ، لضياح جهده سدى ، ولهذا يروى عن إبليس أنه قال : أهلك بنى آدم بالذنوب ، فأهلكونى بالتوبة والاستغفار .

ويروى أيضا أنه قال لربه : بعزتك لأظنن أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل : وبِعزتى لأظنن أغفر لهم ما استغفرونى .

لقد انتصر الشيطان اللعين على الإنسان فى أول الأمر حين أوقعه فى المعصية ، ثم انتصر عليه الإنسان حين رجع إلى الله بالتوبة .

\* \* \*

(٢) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ .

(١) فاطر : ٦ .

## ٥ - الانتصار على النفس الأمارة بالسوء :

ومن ثمرات التوبة : انتصار التائب على شهوات نفسه ، التى بين جنبيه ،  
والتي تدفعه - بما ركب فيها من غرائز ودوافع فطرية - إلى مقارفة الشر ، والمعصية ،  
والتكاسل عن الخير والطاعة ، وهى النفس التى سماها القرآن : أمارة بالسوء ، حين  
قال على لسان امرأة العزيز فى قصة يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ  
نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)  
وهذه الصيغة ( أمارة ) تدل على المبالغة والكثرة ، فهى دائمة الأمر بالسوء ،  
والإغراء به ، والتحريض عليه ، وكثيرا ما يضعف الإنسان أمام إغراءاتها وتحريضاتها ،  
وتسترخى إرادته ويستجيب لداعيها ، حتى إن القرآن الكريم قص علينا قصة أول  
جريمة قتل وقعت فى تاريخ البشرية ، وفى فجر حياتها قبل أن يعرف الناس كيف  
يوارون جثث موتاهم ، وذلك فى قصة ابنى آدم التى قص الله علينا نبأهما بالحق .  
﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ  
إِنَّمَا يُتَقَبَّلُ لِلَّهِ مِنَ الْمُتَّقِينَ \* لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ  
إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ  
نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

فانظر كيف تهوى نفس الإنسان به إلى أى درك ؟ حتى تطوع له قتل أخيه  
الطيب الخير بلا جرم جناه ، إلا أن الله تقبل منه قربانه ولم يتقبل من الآخر ، وما  
ذنب الأخ المسكين فى ذلك ، حتى يكون جزاؤه القتل ؟

إن هذه النفس إذا تركت لغرائزها وحدها أهلكت صاحبها ، ولا بد من  
مجاهدتها ورياضتها حتى تتزكى فتفلح ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا \*  
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (٣) .

(١) يوسف : ٥٣ . (٢) المائدة : ٢٧ - ٣٠ .

(٣) الشمس : ٧ - ١٠ .

وبهذا تنتقل من النفس ( الأمارة ) إلى ( النفس اللوامة ) التى ذكرها القرآن فى مطلع سورة القيامة حين قال : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ \* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (١) .

و ( اللوامة ) صيغة مبالغة من اللوم ، فهى كثيرة اللوم لصاحبها كلما ارتكب شرا ، أو قصر فى خير ، وهى ما نعبر عنه الآن بـ ( الضمير الحى ) ، وهى التى لا تزال تلوم صاحبها حتى تدفعه إلى التوبة .

وقد ترتقى هذه النفس حتى تصبح ( النفس المطمئنة ) المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (٢) .

ولا ريب أن التائب إلى ربه توبة نصوحا ، قد انتصر فى هذه المعركة الكبيرة التى عبرت عنها بعض الكلمات الماثورة التى تقول : « المؤمن بين خمس شدائد : بين مسلم يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يقاتله ، وشيطان يضله ، ونفس تنازعه » إنها معركة كثيرة الأعداء ، متعددة الميادين ، متنوعة الأسلحة ، معركة فى الداخل والخارج ، تحتاج إلى يقظة وتأهب واستعداد ، للجهاد الدائم ، والبذل المستمر ، والمنصور من نصره الله .

\* \* \*

## ٦ - انكسار القلب لله :

وما ثمار التوبة العاجلة : انكسار القلب لله الجليل العظيم ، والشعور بحقيقة العبودية والضراعة بين يديه سبحانه ، وفى بعض الآثار الإلهية : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .

فالتوبة النصوح تحدث فى قلب التائب كسرة خاصة لا يشبهها شئ ، ولا تكون لغير المذنب ، الذى شعر بذنبه ، وحاصره من كل جانب، فهو يريد أن يصطلح

(٢) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

(١) القيامة : ١ ، ٢ .

على ربه ، ويقف على بابه ، بعد الجفوة التي باعدت بينه وبين مولاه بسبب المعصية ، ولكن هذه المعصية ولدت له خيراً، ورب ضارة نافعة، وكم من منحة فى طى محنة .

لقد كانت مصيبة المعصية سبباً فى إفاقة ويقظة ضميره ، وصحوة قلبه ، وغلبة إحساسه بفضل ربه ، وتفريط نفسه ، فيحدث له هذا تحولا فى حياته من الشر إلى الخير ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الضياع إلى الالتزام ، ومن الإعراض إلى الإقبال .

وفى هذا يقول ابن عطاء الله فى حكمه : ربما فتح الله لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القبول ، وربما قدر عليك المعصية فكانت سبباً فى الوصول . معصية أورثت ذلاً لله وانكساراً ، خير من طاعة أورثت عُجبا واستكباراً .

هذا الشعور الحى ، وهذا التصور الواعى ، وهذه الصحوة القلبية : ثمرة لهذا المشهد الذى عبر عنه ابن القيم بمشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار للرب جل جلاله .

فيشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة ، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه ، وفلاحه ، وهدايه وسعادته ، وهذه الحال التى تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تدرك بالحصول ، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شئ .

فحيثئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً ، فأى خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به ، وسياقته إليه ، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقل ما ينبغى لربه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فإن الكسرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه !  
وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من  
طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم ، وأحب  
القلوب إلى الله سبحانه : قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو  
ناكس الرأس بين يدي ربه ، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله .

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه  
منها إلى يوم اللقاء ، فهذا سجود القلب .

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه ، وإذا سجد  
القلب لله - هذه السجدة العظمى - سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حيثئذ  
للحي القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان ،  
ووضع خده على عتبة العبودية ، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز  
الرحيم ، فلا يُرى إلا متملقاً لربه ، خاضعاً له ، ذليلاً مستعظفاً له ، يسأله عطفه  
ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذى  
لا غنى له عنه ، ولا بد له منه . فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه ، لأنه لا  
حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه ، ومحبتة له ، يقول : كيف أُغضب من  
حياتى فى رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبّه  
وذكره ؟ (١) .

\* \* \*

#### ٧ - محبة الله تعالى :

ومن ثمار التوبة : الحصول على محبة الله تعالى ، فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ  
اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢) .

(١) المدارج ١ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

والحصول على محبة الله تعالى ليس بالأمر الهين ، ولا الكسب الضئيل ، إنها شيء كبير لا يقادر قدره ، ولا يعرفه إلا أهله .

وإذا كان الناس يسعون جهدهم ، ويذلون وسعهم ، للحصول على محبة رئيس أو أمير أو ملك ، أو غيرهم من كبراء الدنيا ، فإذا ظفر بذلك اعتبر نفسه قد فاز فوزاً عظيماً ، وفاخر بهذه المحبة أقرانه ، مع أن هذا الرئيس ، أو الأمير لا يستطيع أن يزيد في رزقه درهما لم يكتبه الله له ، ولا أن يؤخر أجله ساعة ليست من عمره ، ولا يملك أن يهب له سكينه في قلبه ، أو راحة لضميره ، أو صلاحاً لذريته ، أو قرّة عين بزوجه ، أو نحو ذلك من طيبات الحياة التي لا يجدها الملوك أنفسهم ، فكيف يهبونها لغيرهم ، وفاقد الشيء لا يعطيه ؟ .

إن المسلم يرنو بعينه ، ويهفو بقلبه ، ويسعى بجهد ، لكي يرتقى إلى محبة الله تعالى ، لكي يكون محبوباً لله رب العالمين ، وأى منزلة أسمى من هذه المنزلة التي عبر عنها الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري : « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها . . . ولئن سألتني ل أعطيه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .

وإنما يحب الله التوابين ؛ لأنه يكره من عباده الشرود عنه ، والبعد عن ساحته ، والوقوع في أسر عدوه الشيطان ، ويحب منهم أن يرجعوا إليه ، ويقفوا على بابه ، وإن عصوه وقصروا في حقه جل شأنه ، فبابه لهم مفتوح ، ويده إليهم مبسوطة أبداً ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ولا يردهم عن عتبته ، ويناديهم « لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

ومن ناحية أخرى ، نجد التائب - بعد تورطه في معصية الله - يشعر بشدة الحاجة إليه ، والافتقار إلى رحمته ، والانكسار بين يديه ، وعمق الإحساس بحقيقة العبودية له ، وغاية الخضوع لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

ومن هنا قال العارفون : إن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله تعالى وأكرمها عليه ، فإنه سبحانه يحب التوابين .

ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة ، وزيادة محبته لعبده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة . يوضح ذلك :

**الوجه الثانى :** أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات ، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدَّوِّية المهلكة ، بعد ما فقدوها ، وأيس من أسباب الحياة ، ولم يجيء هذا الفرح فى شئ من الطاعات سوى التوبة ، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً فى حال الطالب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه ، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد ، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبة ، فيصير حبيباً لله ، فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب ، يوضحه :

**الوجه الثالث :** أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة ، فإن الذل والانكسار روح العبودية ومخها ولبها ، يوضحها :

**الوجه الرابع :** أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ، فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذل الفقر ، والعبودية ، والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية ، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه ، كما فى الأثر الإسرائيلى « يا رب أين أجذك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ولأجل هذا كان « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه .

وتأمل قول النبي ﷺ ، فيما يروى عن ربه عز وجل « أنه يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمني ، قال : يا رب ، كيف أطعمتك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعمتك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقني ، قال : يا رب ، كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى ، ابن آدم ، مرضت فلم تعدني ، قال : يا رب ، كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتني عنده » فقال في عيادة المريض « لوجدتني عنده » وقال في الإطعام ، والإسقاء « لوجدت ذلك عندى » ففرق بينهما ، فإن المريض مكسور القلب ولو كان من كان ، فلا بد أن يكسره المرض ، فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده .

وهذا - والله أعلم - هو السر في استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم ، والمسافر ، والصائم ، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم ، فإن غربة المسافر وكسرتة مما يجده العبد في نفسه ، وكذلك الصوم ، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية ، ويذلها .

والقصد : أن شمعة الجبر والفضل والعطايا ، إنما تنزل في شمعدان الانكسار ، وللعاصي التائب من ذلك أوفر نصيب : يوضحه :

الوجه الخامس : أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة ، من كثير من الطاعات ، وهذا معنى قول بعض السلف « قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى : ذكر ذنبه ، فيحدث له انكساراً ، وتوبة ، واستغفاراً ، وندماً ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة ، فلا تزال نصب عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً وممة ، فتكون سبب هلاكه ، فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات ،

ومعاملات قلبية ، من خوف الله والحياء منه ، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً ، باكياً نادماً ، مستقبلاً ربه ، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة ، وكبراً ، وازدراء بالناس ، ورؤيتهم بعين الاحتقار ، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله ، وأقرب إلى النجاة والفوز ، من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المانّ بها ، ويحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك ، فالله شهيد على ما فى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ، ويخضعوا له ، ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيه ذلك كامناً (١) .

\* \* \*

#### ٨ - فرح الله بالتائب :

ومن ثمار التوبة : نيل الفرحة الكبرى التى لا تعادلها ولا تدانيها فرحة ، إنها فرحة الرب الأعلى ، رب العالمين ، بتوبة عبده ، ورجوعه إليه بعد شروده عنه ، ووقوعه أسيراً فى يد عدوه وجنوده : إبليس اللعين ، وهو بالتوبة قد فك أسرهِ ، وخرج من سجنه ، وخلص من عدوه ، وعاد إلى رحاب ربه وحيبيه ، الذى غمره بإحسانه ، وأحاطه بنعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية ، المادية والمعنوية .

إنها الفرحة الكبرى التى لا نجد فى تصويرها والتعبير عن مداها أبلغ من حديث رسول الله ﷺ الذى رواه عنه ابن مسعود أنه قال : « لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً ، وبه مهلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه ، فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهب راحلته ، فطلبها ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فرجع ، فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، إذا راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه ! فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن ، من هذا براحلته » (٢) .

(٢) متفق عليه .

(١) انظر : المدارج : ١ / ٢٩٧ - ٢٩٩ .

ولقد تحدث ابن القيم عن هذا الفرع الإلهي بتوبة التائب حديثاً بليغاً فياضاً ،  
بين فيه أن هذا الفرع له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه ، ولا يطلع عليه  
إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته ، وما يليق بعز جلاله .

قال : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه  
وفضله ، وشرفه ، وخلق له نفسه ، وخلق كل شيء له ، وخصه من معرفته ومحبه  
وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى  
ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه  
ويقظته ، وطمعته وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه  
وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواص والأخبار ،  
وجعلهم معدن أسرارهم ، ومحل حكمتهم ، وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ،  
فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب ، مداره على النوع الإنسانى ، فإنه خلاصة  
الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهى ، وعليه الثواب والعقاب .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من  
روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأظهر فضله على الملائكة  
فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن بابه ، إذ لم  
يسجد له مع الساجدين ، واتخذة عدواً له .

والمؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من  
العالمين ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتواتر إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته  
وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ليسأله من المواهب  
والعطايا الباطنة والظاهرة ، والعاجلة والآجلة ، التى لا تنال إلا بمحبته ، ولا تنال  
محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه ، فاتخذة محبوباً له ، وأعد له أفضل ما  
يعده محب غنى قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه  
بأوامره ونواهيه ، وأعلمه فى عهده ما يقربه إليه ، ويزيده محبة له وكرامة عليه ،  
وما يبعده منه ويسخطه عليه ، ويسقطه من عينه .

وللمحبيب عدو ، هو أبغض خلقه إليه ، قد جاهره بالعداوة ، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليهم ومعبودهم الحق ، واستقطع عباده ، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم ، وكانوا أعداء له مع هذا العدو ، يدعون إلى سخطه ، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته ، ويسبونه ويكذبونه ، ويفتنون أوليائه ، ويؤذونهم بأنواع الأذى ، ويجدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم ، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه ، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه ، فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وما لهم ، وحذرهم موالاتهم والدخول في زميرتهم والكون معهم .

وأخبره في عهده : أنه أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمته غضبه ، وحلمه عقوبته ، وعفوه مؤاخذته ، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر ، وأن الفضل كله بيده ، والخير كله منه ، والجود كله له ، وأحب ما إليه : أن يجود على عباده ويوسعهم فضلاً ، ويغمرهم إحساناً وجوداً ، ويتم عليهم نعمته ، ويضاعف لديهم منته ، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه ، ويتحجب إليهم بنعمه وآلائه .

فهو الجواد لذاته ، وجود كل جواد خلقه الله ، ويخلقه أبداً : أقل من ذرة بالقياس إلى جوده ، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو ، وجود كل جواد فمن جوده ، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان ، والبر والإنعام والإفضال : فوق ما يخطر ببال الخلق ، أو يدور في أوهامهم ، وفرحه بعطاءه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ ما يعطاه ويأخذه ، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً ، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها ، فما الظن بفرح المعطى ؟ ففرح المعطى سبحانه بعطاءه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ، والله المثل الأعلى .

فإذا تعرض عبده ومحبيه الذي خلقه لنفسه ، وأعد له أنواع كرامته ، وفضله على غيره ، وجعله محل معرفته ، وأنزل إليه كتابه ، وأرسل إليه رسوله ، واعتنى

بأمره ولم يهمله ، ولم يتركه سدى ، فتعرض لغضبه ، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه ، ووالى عدوه وظاهره عليه ، وتحيز إليه ، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التى هى أحب شئ إليه ، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام : فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف بما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسقاطه وانتقامه ، وأن يصير غضبه وسخطه فى موضع رضاه ، وانتقامه وعقوبته فى موضع كرمه وبره وعطائه ، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه ، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان .

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة ، إذ انقلب آبقاً شاردأ ، رادأ لكرامته ، مائلاً عنه إلى عدوه ، مع شدة حاجته إليه ، وعدم استغناؤه عنه طرفة عين .

فبينما ذلك الحبيب مع العدو فى طاعته وخدمته ، ناسياً لسيده ، منهمكا فى موافقة عدوه ، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله : إذا عرضت له فكرة ، فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه ، وعلم أنه لا بد له منه ، وأن مصيره إليه ، وعرضه عليه ، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قُدم به عليه على أسوأ الأحوال . ففر إلى سيده من بلد عدوه ، وجدَّ فى الهرب إليه حتى وصل إلى بابه ، فوضع خده على عتبة بابه ، وتوسد ثرى أعتابه ، متذللاً متضرعاً ، خاشعاً باكياً أسفاً ، يتملق سيده ويسترحمه ، ويستعطفه ويعتذر إليه ، قد ألقى بيده إليه ، واستسلم له وأعطاه قياده ، وألقى إليه زمامه ، فعلم سيده ما فى قلبه ، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ، ومكان الشدة عليه رحمة به ، وأبدله بالعقوبة عفواً ، وبالمنع عطاءً ، وبالمؤاخذه حلماً ، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله ، وما هو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ؛ فكيف يكون فرح سيده به ؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً ، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه ، وفتح طريق البر والإحسان والجود ، التى هى أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة ؟ .

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهى بالإحسان والجود والبر .

وأما إن لاحظت تعلقه بالهية وكونه معبوداً : فذاك مشهدٌ أجل من هذا وأعظم منه ، وإنما يشهده خواص المحبين .

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته ، وهذا هو الحق الذى خلقت به السموات والأرض ، وهو غاية الخلق والأمر ، ونفيه - كما يقول أعداؤه - هو الباطل ، والعبث الذى نزه الله نفسه عنه ، وهو السدى الذى نزه نفسه عنه : أن يترك الإنسان عليه ، وهو سبحانه يحب أن يُعبدَ ويطاع ولا يعباً بخلقه شيئاً لولا محبتهم له ، وطاعتهم له ، ودعاؤهم له .

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وسدى ، وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين ، والآله الحق ، فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية ، فقد خرج عن أحب الأشياء إليه ، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة ، وصار كأنه خلق عبثاً لغير شيء ، إذا لم تخرج أرضه البذر الذى وضع فيها ، بل قلبته شوكة ودغلاً ، فإذا رجع إلى ما خلق له وأوجد لأجله : فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره ، ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها ، وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل ، فاشتدت محبة الرب له ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقدَّر من الفرح ، ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى ﷺ لذكره ، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه فى سفره ، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقدته ، وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه ، ثم وجده وصار طوع يده ، فلا فرحة أعظم من فرحته به .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً ، أسره عدوك ، وحال بينك وبينه ، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ، ويُعرّضه لأنواع الهلاك ، وأنت أولى به منه ، وهو غرسك وتربيتك ، ثم إنه انفلت من عدوه ، ووافاك على غير ميعاد .

فلم يفجأك إلا وهو على بابك ، يتملقك ويترضاك ويستعينك ، ويمرغ خديه على تراب أعتابك ، فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصصته لنفسك ، ورضيته لقربك ، وأثرته على سواه ؟ .

هذا ، ولست الذى أوجدته وخلقته ، وأسبغت عليه نعمك ، والله عز وجل هو الذى أوجد عبده ، وخلقه وكونه ، وأسبغ عليه نعمه ، وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مظهرًا لنعمه ، قابلاً لها ، شاكرًا لها ، محبًا لوكيلها ، مطيعًا له ، عابدًا له ، معادياً لعدوه ، مبغضًا له عاصياً له ، والله تعالى يحب من عبده معادة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، كما يحب أن يوالى الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده ، فتضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه ، إلى محبته لعداوة عدوه ، ومعصيته ، ومخالفته ، فتشتد المحبة منه سبحانه ، مع حصول محبوه ، وهذا هو حقيقة الفرح (١) .

\* \* \*

---

(١) مدارج السالكين : ١ / ٢٦٤ - ٢٦٦ .